جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية–قسنطينة
كلية الآداب والحضارة الإسلامية، قسم اللغة العربية
الملتقى الدولي حول:"**السيرة النبوية في الكتابات الأدبية عند المستشرقين**"
يومي:16–17 رجب 1441هـ الموافق 10–11 مارس 2020م

عنوان المداخلة:"**موقف جوزيف شاخت من صدور التشريع عن النبي باعتبار مقاماته- دراسة نقدية-**

إعداد الدكتورة: سعاد رباح
أستاذ محاضر أ
كلية الشريعة والاقتصاد، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية–قسنطينة

الملخص:

يعد الاستشراق من أخطر الحركات الفكرية التي تحرص على بث الشبهات والافتراءات حول مصادر التلقي الأصلية عند المسلمين، وفي سبيل ذلك يقوم المستشرقون ومن يقف وراءهم بتجنيد طاقات بشرية، واقتصادية، وتقنية، ليحققوا الغايات التي يسعون إليها. ومن أهم هؤلاء المستشرقين الذين ألفوا ودرسوا حول السيرة العطرة للرسول صلى الله عليه وسلم، وسنته الشريفة المطهرة، هو الألماني جوزيف شاخت(م 1902–ت 1969) والذي يعدّ عند متأخري المستشرقين أبرز من كتب في الهجوم على السنة النبوية وحجيتها، وإنكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وتتمثل آراؤه في سيرة الرسول – **صلى الله عليه وسلم** – التشريعية، أنه يرى أن ما صدر عن **النبي–صلى الله عليه وسلم–** من أقوال وأفعال، لم تصدر عنه باعتبار مقام النبوة أي لم يقصد منها التشريع، لأن **الرسول–صلى الله عليه وسلم–** حسب رأيه لم يكن مهتما ببيان الأمور التشريعية، كالقضايا المتعلقة بالمعاملات المالية والأحوال الشخصية والقضاء، وغيرها من الأحكام، فقد كانت هذه المسائل تقع خارجة عن نطاق الدين أو التشريع، وينفي وجود أي حديث صادر عنه صلى الله عليه وسلم يستخدم كدليل شرعي على هذه القضايا التشريعية. كما يرى شاخت مثلا أن مصطلح "السنة" لا علاقة له بأقوال الرسول – **صلى الله عليه وسلم** – وأفعاله، وإنما هوا راجع لمفهوم قديم وهو الأمر المجتمع عليه، كما يرى شاخت أن الاحتجاج بالأحاديث متصلة الإسناد إلى الرسول– **صلى الله عليه وسلم**–، لم يكن معروفا في القرنين الأول والثاني الهجريين، وإنما ظهر في عهد المذاهب الفقهية وبالضبط في زمن الشافعي الذي كان يدعو إلى ضرورة إسناد الاستدلالات الفقهية إلى أقوال الرسول أو أفعاله بمقولته:(إذا صح الحديث فهو مذهبي)، مما أدى حسب رأي شاخت إلى ظهور أحاديث مكذوبة عن الرسول من أجل إضفاء الشرعية على الاستدلالات والآراء الفقهية، والانتصار لها. وهو بذلك

يتهم فقهاء المسلمين ومحدثيهم بالكذب والتزوير والوضع في الحديث، وذكرهم لأسانيد الرواة ممن يختارونه من أنفسهم وبشكل اعتباطي. مما يستخلص منه أن شاخت يرى عدم صحة أي حديث من أحاديث الأحكام المروية بالسند إلى الرسول – **صلى الله عليه وسلم** – وينكر صدورها عنه صلى الله عليه وسلم في أي مقام من مقاماته – **صلى الله عليه وسلم** – إن مقام النبوة أم مقام القضاء أو السياسة. والغريب أنه يتشدق بتمسكه بالمنهج العلمي الدقيق في بحوثه، بينما في الحقيقة وعند النظر والتحقيق نجد أنه كان متجاوزا لأصول المنهج العلمي المتعارف عليه في دراسته وكتاباته المتعلقة بالسيرة النبوية المطهرة، والسنة التشريعية الشريفة، إذ يلاحظ من خلالها أنه كان واقعا في مزالق التحيز العنصري ضد المسلمين، والكراهية الشديدة لهم، وبعيدا كل البعد عن الموضوعية التي يجب أن يتحلى بها الباحث، والتي تؤدي إلى الإنصاف مع المخالفين له، كما ينطلق من مسلّمات عنده وأفكار مسبقة راسخة في ذهنه، يريد الانتصار لها وإثباتها ولو بطريق أعوج عمدته الكذب والافتراء، والتفسير المتعسف للنصوص لعدم فهم بعض الألفاظ والمصطلحات الموجودة فيها، وتجاهله لعبارات النص و سياقه، مما أوقعه نتيجة لذلك كله في أخطاء فادحة لا تليق بقطب مثله من أقطاب البحوث والدراسات الاستشراقية.

والإشكالية التي تطرح نفسها للبحث هي: من هو جوزيف شاخت؟ وما هي آراؤه وكتاباته حول السيرة النبوية والسنة التشريعية ؟ وهل هي مبنية على منهج علمي دقيق وسليم من العيوب؟ وما هي أبرز عيوب البحث العلمي التي وقع فيها شاخت؟ وهل هذه العيوب مؤثرة في سلامة النتائج التي توصل إليها شاخت فيما يتعلق ببعض المسائل في السيرة النبوية والسنة التشريعية من حيث قبولها أو ردها؟ هذه التساؤلات وغيرها مما تحاول ورقتي البحثية الإجابة عنها ودراستها دراسة نقدية –إن شاء الله– فيما سيأتي في صلب هذا البحث ومفاصله.

الكلمات المفتاحية: جوزيف شاخت، التشريع، مقامات النبي، السيرة.

Summary

Joseph Schacht's Position on the Issuance of Legislation from the Prophet, Considering his Roles – peace be upon him - A Critical Study

Orientalism is one of the most dangerous intellectual movements that are keen to sow suspicions and fabrications about the original sources of reception of Muslims. For this purpose, the Orientalists and those behind them recruit human, economic and technical energies to achieve the goals they seek.

Among the most important of these orientalists who wrote about and studied the biography of the Messenger, peace be upon him, and his honorable and purified Sunnah, is the German Joseph Schacht (b. 1902-d. 1969).

The German Joseph Schacht is considered, among the later orientalists,as the most prominent of those who attacked the Prophet's Sunnah and its authoritativeness, and denied the prophethood of Muhammad, peace and blessings be upon him. Concerning the legislative biography of the Prophet -pbuh-, Schacht thinks that the prophets' sayings and actions did not come from his position of prophecy, i.e. they were not intended to be legislation, because the Messenger - R - according to Schacht's opinion, was not interested in explaining legislative matters, such as issues related to financial transactions, personal status, judiciary, and other rulings, as these issues were outside on the scope of religion or legislation.

He denies the existence of any hadith issued by him, may God bless him and grant him peace, that is used as legal evidence on these legislative issues. Shacht sees that the term "Sunnah" has nothing to do with the words and actions of the Messenger – may God's prayers and peace be upon him – rather it is due to an old concept, which is amatter that is agreed upon. Shacht also believes that invoking hadiths that are connected to the Messenger – may God's prayers and peace be upon him – was not known in the first and second centuries Hijri, but it appeared in the era of the jurisprudential schools and exactly in the time of Al-Shafi'i, who was calling for the need to base the jurisprudential inferences on the Prophet's sayings or actions (if the hadith is authentic, then it is doctrinal), which led, according to Shachet's opinion, to the emergence of false hadiths about the Messenger in order to legitimize and back the inferences and opinions of jurisprudence. Thus, he accuses Muslim jurists and their speakers of lies and fabrication in the hadith, and arbitrarily mentioning the isnads of the narrators whom they choose themselves. What can be concluded from this is that, that Schacht believes in the invalidity of any of the hadiths of rulings narrated with the chain of transmission to the Messenger -pbuh- and denies its issuance from any of on his roles, as a prophet or judiciary or politician What is strange is his claim to adhere to the accurate scientific method in his research, while in fact, when looking and investigating, we find that he was transgressing the principles of the scientific method recognized in his studies and writings related to the Prophet's purified biography and the honorable legislation.It is noticed from his works, that he was in the pitfalls of racial prejudice against Muslims and intense hatred for them, and far from the objectivity that the researcher must possess, leading to fairness with his opponents.

He also proceeds from axioms he had and preconceived ideas firmly established in his mind, which he wants to prove, even if through the way of deliberate lies and slanderand arbitrary interpretation of the texts, because he did not understand some of the words and terms, and ignored the context of the phrases of the text, which has caused grave mistakes that could not befit a "pole" in research and oriental studies.

Thus, the research questions that arise are: Who is Joseph Schacht? What are his views and writings about the Prophet's biography and legislation? Are they based on an accurate and sound scientific method free of defects? And what are the most prominent defects in the scientific research of Schacht? Are these defects affecting the validity of the conclusions reached by Shachat with regard to some issues in the Prophet's biography and legislation in terms of their acceptance or rejection? These and other questions are what my research paper is trying to answer and critically study - God willing – in this research.

The key words : Joseph Schacht, Roles of the Prophet, Legislation**,** the biography.

المقدمة

تكمن أهمية السنة النبوية في أنها وثقت لنا كل ما صدر عن النبي في حياته وقبل مماته، سواء في مقام النبوة أو مقام الحكم: عبادته، وزهده، وصيامه، وقيامه، وصلاته، وحجه، وتسبيحه، وذكره، ودعاءه، وابتهاله، ودعوته، وهجرته، وصلحه مع أعدائه، وجهاده، فتوحه، وغزواته، وعلاقته مع صحبه وزوجاته، فلم يبق منها شيء إلا كان عندنا منه قبس وصلنا عن طريق صحابته والتابعين ومن بعدهم الرواة الثقات، الذين نقلوا عنهم، ودوّنها أئمة الحديث في كتبهم التي حظيت بالرعاية والاهتمام لنصرة هذا الدين وسنة رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام. وإن السنة أيضا مع اشتمالها على حياة رسولنا الكريم وتبيان حياته، تعد أيضا مصدرا من مصادر التشريع في ديننا العظيم. فلقد أوتي النبي محمد سلطة التشريع والبيان والتبليغ عن الله لأمّته، وجعلت طاعته من طاعة الله تعالى، ولذلك كان القرآن والسنة هما المصدران الأساسيان للتشريع، ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو حاقد.

ويعد المستشرقون رأس الحربة في الحرب على الإسلام والتشكيك في مصادره، والطعن في صلاحيتها، وقد كان لعدد كبير من المستشرقين كتب ومؤلفات للطعن في الإسلام ومصادره، ومنها السنة،بل الطعن في النبي **صلى الله عليه وسلم** والتشكيك فيما صدر عنه، من أقوال وأفعال وتقريرات ليصلوا لإنكار النبوة عنه **صلى الله عليه وسلم**. وهذه الورقات البحثية تتطرق إلى عرض ونقد آراء وشبهات وحجج أحد أهم وأخطر المستشرقين، الذين طعنوا في الإسلام ومصادره، وفي مقامات النبي **صلى الله عليه وسلم** ، وهو المستشرق "جوزيف شاخت" الذي أتى بنظرية خيالية، ترى أنه لا يوجد حديث واحد صحيح، خاصة الأحاديث الفقهية، فغير نظرة أسلافه من المستشرقين من التشكيك إلى اليقين، من خلال ما كتبه في مؤلفه "أصول الشريعة المحمدية"الذي يعد من أهم دراسات المستشرقين في ذلك، بالإضافة إلى بعض مؤلفاته الأخرى، حيث يعد من أوائل الدراسات الاستشراقية في الطعن والتعرض للسيرة والسنة النبوية. بناء على ذلك، يمكن طرح جملة من الأسئلة بشأن هذا الموضوع: من يكون جوزيف شاخت؟ وما آراؤه وكتاباته حول السيرة النبوية والسنة التشريعية؟ وهل هي مبنية على منهج علمي دقيق وسليم من العيوب؟وهل كان موافقا لمواصفات المنهج العلمي، أم اعترته أخطاء أبعدته عن هذا المنهج؟ وما النتائج التي توصل إليها المستشرق شاخت من جراء ارتكابه لتلك الأخطاء؟ وما الانتقادات الموجهة له بشأن تطبيقه لمنهجه ذاك إن كان بعيدا عن المنهج العلمي؟هذه بعض الأسئلة التي نروم مناقشتها وفق منهج تحليلي نقدي يقوم على خطة في ثلاثة مباحث؛ أولها في التعريف بالمستشرق جوزيف شاخت، والثاني: المنهج الذي اتبع شاخت حول ما صدر عن النبي **صلى الله عليه وسلم** بحسب مقاماته، والثالث في: الردود الأكاديمية على منهج شاخت في دراسته للسيرة والسنة النبوية المطهرة.

المبحث الأول: التعريف بالمستشرق جوزيف شاخت/ Joseph Schacht([1])

ولد المستشرق جوزيف شاخت في 1902/3/15م، وهو ألماني الأصل يهودي الديانة–على ما ذهب إليه الكثير من الباحثين– بريطاني الجنسية، في راتيبور في ألمانيا، ودرس هناك علوم اللاهوت والفيلولوجيا الكلاسيكية، واللغات الشرقية، في جامعتي برسلاو وليبيتسك، وفي عام1925م عيّن –بعد أن حصل على الدكتوراه في التأهيل– للتدريس في جامعة فرايبورغ، لينتقل عام 1932م إلى جامعة كينجسبرغ.وفي عام 1934م انتدب للتدريس في الجامعة المصرية،وهي اليوم جامعة القاهرة، في فرع فقه اللغة العربية واللغة السريانية بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، وقد استمرّ أستاذاً في القاهرة حتى عام 1939م.وباندلاع الحرب العالمية الثانية انتقل من مصر إلى لندن، حيث عمل في الإذاعة البريطانية BBCلصالح بريطانيا وحلفائها ضدّ وطنه، حيث كان شاخت معارضاً ساخطاً على النازية، ولم يعد إلى ألمانيا إلا عام 1945م بعد انتهاء الحرب، ورغم خدماته لبريطانيا وحصوله على شهادة دكتوراه فيها من جامعة أكسفورد، لكنه لم يعيَّن مدرساً هناك، فعاد وترك بريطانيا عام 1954م، ليعيّن أستاذاً في جامعة ليدن في هولندا. وهناك اشترك في الإشراف على الطبعة الثانية من (دائرة المعارف الإسلامية). وفي عام 1959م انتقل إلى نيويورك ليعيّن أستاذاً في جامعة كولومبيا.وانتخب عضواً في العديد من المجامع العلمية، ومنها المجمع العلمي العربي في دمشق. وتولّى مع برونشفيج مجلّة (الدراسات الإسلامية)، وأخذ شهرته في دراساته حول التشريع الإسلامي (الفقه والأصول) ونشأته وتطوّره ومدارسه.توفي شاخت في شهر آب/أغسطس من عام 1969م.

عرف شاخت باهتمامه بالفقه الإسلامي وهو الميدان الحقيقي الذي برّز فيه، وأهم ما له في هذا الباب كتابه الرئيسي "بداية الفقه الإسلامي"، الذي أعيد طبعه بعنوان"أصول الشريعة المحمدية"، كما يليه في الأهمية كتيبه الصغير بعنوان"مخطط تاريخ الفقه الإسلامي" كما قام بإعداد ونشر وتنقيح مخطوط"موجز في الفقه الإسلامي" الذي تركه أحد المستشرقين وهو برجشتراسر، كما ألف"المدخل إلى الفقه الإسلامي".

وبلغت مكانة شاخت بين المستشرقين عليا، لدرجة أنَّ جامعة "لندن" وكذلك جامعة "كمبردج" لم توافقا على أن تناقَش أيَّ أطروحة لدراسة ونقد كتاب المؤلف "شاخت" المسمى "أصول الشريعة المحمدية"، ذلك الكتاب الذي يعد من أبرز ما كُتب في الطعن بالسنة النبوية والتشريع الإسلامي، بل أساسا لكل دراسة عن الإسلام وشريعته، على الأقل في العالم الغربي كما قال البروفسور "جب"، وهذا ما وقع بالفعل، فقد

[1] برنارد لويس، جوزيف شاخت، ترجمة الصديق بشير نصر، مجلة كلية الدعوة، ليبيا، ع11، 1994. روبير برونشفيج، يوسف شاخت حياته وآثاره، ترجمة عبد الحكيم الأربد، مجلة كلية الدعوة، ليبيا، ع11، 1994. نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف، القاهؤة، ط4، 469/2. الصديق بشير نصر، أصول الفقه المحمدي لجوزيف شاخت في كتابات الغربيين، مجلة كلية الدعوة، ليبيا، ع11، 1994. محمد السباعي، ترجمة كتاب الأبطال لتوماس كارليل، دون ط، دار الكاتب العربي، بيروت.

طُرد أحد الأساتذة في جامعة "أكسفورد" بعدما لخَّص آراء شاخت في الفقه الإسلامي ونقدها بأدلة دامغة وواضحة.

اشتغل شاخت على عدّة محاور أبرزها:

1- دراسة المخطوطات العربية،حيث اهتمّ ببعضها ممّا كان موجوداً في اسطنبول والقاهرة وتونس وفاس.

2 . تحقيق نصوص مخطوطة في الفقه الإسلامي،من بينها كتاب الحيل والمخارج للخصّاف، وكتاب الحيل في الفقه لأبي حاتم القزويني، وكتاب الشفعة للطحاوي، وكتاب اختلاف الفقهاء للطبري.

3 . دراسات في علم الكلام الإسلامي،مثل دراسته التي حملت عنوان «مصادر جديدة تتعلّق بتاريخ علم الكلام الإسلامي»، والتي نشرها عام1953.

4 . دراسات في تاريخ العلوم والفلسفة في الإسلام،كما في تعاونه مع مايرهوف في نشر بعض النصوص المخطوطة في الطب. وقد كان شاخت يعتقد بأنّ للفكر الإغريقي والجاهلية العربية فضلاً على الإسلام حيث أخذ منهما الكثير.

5 . دراسات في الفقه الإسلامي،وكان هذا أبرز مجال عرف شاخت به، ومن أهم أعماله في هذا المضمار كتابه الأهم «بداية الفقه الإسلامي» الذي طبع في 350 صفحة عام 1950م، ودرس فيه بالدرجة الأولى مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي (204هـ)، محلّلاً رسالة الشافعي في علم أصول الفقه.

كتب شاخت أيضاً كتيباً صغيراً أخذ أهميته أيضاً بعد كتابه المتقدّم، وحمل عنوان «مخطط تاريخ الفقه الإسلامي»، وقد نشر في باريس بعد ترجمته إلى الفرنسية عام 1953م.

ألّف شاخت أيضاً باللغة الإنجليزية: «مدخلاً إلى الفقه الإسلامي» ولم يكن بتلك المثابة من الأهمية كما في سائر أعماله.

إضافة إلى ذلك، اهتمّ شاخت بالدراسات الجديدة في العالم الإسلامي، لاسيما بالقانون في مصر الحديثة، وقد كتب مقالاً تحت عنوان «الشريعة والقانون في مصر الحديثة، إسهام في مسألة التجديد الإسلامي»، وقد تركت أعماله بصماتها على دارسي الإسلام والتشريع الإسلامي.

تحوّلت نظرية شاخت في أنّ الفقه ليس سوى وليد تطوّر تاريخي إلى مادّة أصليّة للدراسات الجامعية في الغرب، وصارت أشبه بالمسلّمة التي يتمّ الانطلاق منها لدراسة الفكر الإسلامي.

عُرف شاخت في الحديث بنظرية اختلاق الإسناد التي سمّاها (القذف الخلفي)، وقد كان لهذه النظرية بدايات سابقة مع كلّ من كايتاني 1926م، وميور 1905م، وشبرنجرا 1893م، وجولدتسيهر 1921م.

وامتازت أهم أعمال شاخت بنشرها في أهم المجلات في العالم، وفي دائرة المعارف الإسلامية على الخصوص.

المبحث الثاني: المنهج الذي اتبع شاخت حول ما صدر عن النبي–ص– بحسب مقاماته.

لقد حاول شاخت كغيره من المستشرقين دراسة السيرة النبوية وفق منهج استمد مقوماته من المناهج الغربية المرتكزة على أسس مغايرة لروح السيرة وواقعها، وقد أراد إخضاع السيرة النبوية لمناهج البحث الغربية المادية والعلمانية وغيرها من المناهج، ليفتح له ذلك المجال للتشكيك في السيرة النبوية ذاتها، ولذلك اعترى المنهج الاستشراقي كثير من الخلل في دراسته ومعالجته لأحداث السيرة النبوية، وما يتعلق بها من جوانب في السنة المطهرة؛ لأنه ظل يتخذ الشك قاعدة صلبة في تناوله لأحداث ومسائل كثيرة في السيرة العطرة والسنة المشرفة، لتصل به لدرجة اليقين في جحود كل ما صدر عن النبي **صلى الله عليه وسلم** نازعا عنه كل مقاماته سواء كنبي أو حاكم مشرع، حتى أنكر دوره **صلى الله عليه وسلم** في المجتمع المسلم، ليصل في النهاية لنفي صفة النبوة عنه **صلى الله عليه وسلم** ([2]). يقول عماد الدين خليل في بحث له عن مناهج المستشرقين في دراسة السيرة: (إن المستشرقين – بعامة – يريدون أن يدرسوا سيرة رسول الله **صلى الله عليه وسلم** وفق حالتين، تجعلان من المستحيل تحقيق فهم صحيح لنسيج السيرة ونتائجها وأهدافها التي تحركت صوبها، والغاية الأساسية التي تمحورت حولها؛فالمستشرق بين أن يكون علمانيًّا ماديًّا لا يؤمن بالغيب، وبين أن يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا لا يؤمن بصدق الرسالة التي أعقبت النصرانية".([3]) وتتلخص مطاعن جوزيف شاخت حول السنة والسيرة العطرة فيما يلي:

1. تحريف مفهوم السنة النبوية معتبرا بأنها ''الأمر المجتمع عليه في الأوساط العلمية''، أي أن المدارس الفقهية هي التي بنت مفهومها للسنة وفقا للمعنى القديم، وهو الأعراف الجاهلية، مما يعني أنها ليست سنة النبي **صلى الله عليه وسلم** ، ولا علاقة لهذا اللفظ بأقوال الرسول وأفعاله،كما هي حقيقة،وكما يعتقدها سائر المسلمين([4]).

2. الطعن في حجية السنة وقيمتها التشريعية، وذلك بادعائه أن الاحتجاج بالأحاديث ذات الإسناد المتصل إلى

النبي **صلى الله عليه وسلم** لم يعرف في القرنين الأول والثاني الهجريين، وإنما بدأ ذلك في القرون اللاحقة وبالضبط في زمن الشافعي الذي يرى ضرورة إسناد الاستدلالات الفقهية إلى ما صدر عن الرسول **صلى الله عليه وسلم** باعتبار مقاماته سواء كنبيأو كحاكم مشرع أوقاض بين الناس، مما أدى إلى ظهور أحاديث

---

[2]مجموعة من الباحثين، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، ط1، مكتب التربية مكتب التربية العربي، 1411هـ، 68/1. وخالد الدريس، العيوب المنهجية في كتابات المستشرق شاخت المتعلقة بالسنة النبوية، ص11. ومحمد مصطفى الأعظمي، المستشرق شاخت والسنة النبوية، مطبوع ضمن كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، مكتب التربية العربي1411 هـ، 69/1.

[3]عماد الدين خليل، مناهج المستشرقين في دراسة السيرة، ص 10.

[4]الصديق بشير نصر، أصول الفقه المحمدي لجوزيف شاخت في كتابات الغربيين، ص10. وخالد الدريس، العيوب المنهجية في كتابات المستشرق شاخت المتعلقة بالسنة النبوية، ص14.

مكذوبة عن النبي **صلى الله عليه وسلم** ، وذلك لإيجاد مصدر وغطاء تشريعي لآراء هؤلاء الفقهاء والانتصار لها مع المخالف([5]).

4. التشكيك في قيمة الأسانيد الحديثية، بدعوى أنها وجدت وتطورت بشكل بدائي واعتباطي، في نهاية القرن الأول، ثم تطورت في القرنين الثاني والثالث، مما تعد معه غير صحيحة ولا يمكن قبولها، خاصة وقد بلغ عدد الأحاديث أكثر من سبعمائة حديث كما يقولون([6]).

5. ظهور الوضع والكذب في الحديث نتيجة انتشار المذاهب.

6- كما حاول شاخت أن يأتي بنظرية جديدة حول أسس الفقه الإسلامي، ونشر لبيانها عدة كتب ومقالات بالإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، ووضع كتاب"المدخل إلى الفقه الإسلامي" لهذا الغرض. وإن كان كتابه "أصول الشريعة المحمدية" يعد من أشهر مؤلفاته على الإطلاق، إذ صار بالنسبة لعالم الاستشراق "إنجيلا ثانيا". وقد أثرت نظريات شاخت تأثيرا بالغا على جميع المستشرقين تقريبا.وقد ركز شاخت في حربه على السنة والشريعة عموما، على أحاديث الأحكام في كتابه "أصول الشريعة المحمدية" وكتابه الآخر"مقدمة في الفقه الإسلامي"، وأكد على اختلاق الأحاديث، بل لقد غير نظرة سلفه المستشرقين، وعلى رأسهم جولد تسيهر، التشكيكية في صحة الأحاديث، إلى نظرة متيقنة في عدم صحتها، وأثنى كثير من المستشرقين على كتابه، واعتبروه أساسا لكافة الدراسات الاستشراقية للحضارة الإسلامية والتشريع الإسلامي في الغرب([7]).

وهو في كتابه هذا يحاول أن يقتلع جذور الشريعة الإسلامية، ويقضي على تاريخ التشريع الإسلامي-كما أكد الدكتور الأعظمي- مدعيا أن الرسول **صلى الله عليه وسلم** لم يكن مهتما ببيان أمور الشريعة، كالقضايا المتعلقة بالمعاملات المالية والأحوال الشخصية والقضاء، وهو يزعم أنه "في الجزء الأكبر من القرن الأول لم يكن للفقه الإسلامي- في معناه الاصطلاحي- وجود كما كان في عهد النبي. والقانون-أي الشريعة- من حيث هي هكذا كانت تقع خارجة عن نطاق الدين ما لم يكن هناك اعتراض ديني أو معنوي روحي على تعامل خاص في السلوك، فقد كانت مسألة القانون-أي الشريعة- تمثل عملية لا مبالاة بالنسبة للمسلمين"([8]). حيث صرح شاخت بأنه من العسير أن يعد حديث ما من الأحاديث الفقهية صحيحا بنسبته إلى النبي فيما يتعلق بمسائل التشريع الديني([9]).

---

[5]الصديق بشير نصر، أصول الفقه المحمدي لجوزيف شاخت في كتابات الغربيين، ص650- 661.

[6]خالد الدريس، العيوب المنهجية في كتابات المستشرق شاخت المتعلقة بالسنة النبوية،ص15.

[7]الصديق بشير نصر، المرجع السابق، ص646.

[8]محمد مصطفى الأعظمي، المستشرق شاخت والسنة النبوية، 69/1.

[9]محمد مصطفى الأعظمي، المرجع نفسه، ص 289. خالد الدريس، المرجع السابق، ص15

ورد عليه الأعظمي من خلال جداول إحصائية برهن فيها على أن تشريعات القرآن شملت عموم جوانب الحياة كلها، وأنه أنزل لهم من أصول التشريع ما يكفي لسد حاجاتهم، وتمثيلا لأوامر الله سبحانه.

والخلاصة التي توصل إليها شاخت أنْ ليس هناك أقوال أو أفعال صادرة عن النبي **صلى الله عليه وسلم** في مجال التشريع، وأن مجموع الأحاديث التي وصلتنا ما هي إلا نتاج تزييف ديني واسع النطاق، وحسب رأيه فعلماء المسلمين من فقهاء ومحدثين إنما هم جماعة من الكذابين والمدلسين([10]).

تحدث شاخت في كتابه المذكور عن كيفية تطور القانون، الذي يقصد به الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي، ومنشأ ذلك التطور في زعمه، حيث ادعى أن مصادر التشريع لم يأت بها النبي **صلى الله عليه وسلم** وإنما هي من عمل الإمام الشافعي واختلاقاته، كما بين فيه مفهومه للسنة النبوية وكل ما كان يصدر عن النبي **صلى الله عليه وسلم** من أقوال وأفعال وتقريرات ونحوها بحسب مقاماته.ولم يخرج شاخت عن تعريف من سبقوه من المستشرقين، وهو أن السنة ماهي إلا اتباع المسلمين لعادات وتقاليد وأعراف أسلافهم القدماء في الجاهلية وتقديسها والمحافظة عليها. وهو بذلك يدعي عدم أصالة التشريع الإسلامي، بناء على عدم أصالة أصوله التي يقوم عليها وهي السنة النبوية، وعليه فهو ينفي ما صدر عن النبي **صلى الله عليه وسلم** في مقام النبوة، زاعما أن ما صدر عنه كما الإسلام عموما، قد تأثر بمصادر داخلية هي التقاليد والأعراف الجاهلية، وخارجية وهي التعاليم اليهودية والنصرانية، وغيرها من الأديان والنحل والقوانين المعروفة في تلك الحقبة من التاريخ، حيث يقول بعدما بين مفهوم السنة لدى المسلمين–كما يراه هو–:"إن النظرة الكلاسيكية للفقه الإسلامي تعرف السنة بأفعال النبي **صلى الله عليه وسلم** المثالية، وفي هذا المفهوم يستعمل الشافعي كلمة السنة، وعنده أن "السنة"أو"سنة النبي" كلمتان مترادفتان"، لكن معنى السنة–على وجه الدقة– (إنما هو النظائر السابقة ومنهج للحياة)"([11]).ويذهب شاخت إلى ما ذهب إليه أساتذته بأن لفظ السنة هو في الحقيقة مصطلح وثني في أصله وإنما تبناه الإسلام واقتبسه.ولذلك نجده يعرفها في كتابه"العقيدة والشريعة في الإسلام" بأنها"العادة المقدسة والأمر الأول(أي الجاهلي)...وهي جوهر العادات وتفكير الأمة الإسلامية قديما"([12]).

وعن نفيه لما صدر عن النبي – **صلى الله عليه وسلم** – من الأقوال في مقام النبوة ومقام السلطة والحكم، وأنه **صلى الله عليه وسلم** قد أخذها من اليهودية والنصرانية وتراث الجاهلية القديمة وغيرهم من الأمم والنحل، متأثرا بكل ذلك، وأنه– **صلى الله عليه وسلم** – لم يكن يقصد تشريع الأحكام وسنها لأتباعه لا بصفته نبيا ولا كذلك بصفته حاكما له سلطة التشريع، وإنما جاء التشريع بصفة تلقائية طبيعية نتاجا لما

---

[10] محمد مصطفى الأعظمي، دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، 1402هـ، ص ي. وخالد الدريس، المرجع السابق، ص17.

[11] محمد مصطفى الأعظمي، المستشرق شاخت والسنة النبوية، 70/69/1. والصديق بشير نصر، أصول الفقه المحمدي لجوزيف شاخت، ص58.

[12] محمد مصطفى الأعظمي، المستشرق شاخت والسنة النبوية، 70/1.

كان من قبل الإسلام من عادات وأعراف وقوانين، وأن جل ما صدر عن النبي **صلى الله عليه وسلم** إنما كان يقتصر على تصحيح لبعض المسائل التي كانت تدفع لمعالجتها الحوادث الخارجية، وليس ذلك منه وفق مقام النبوة أو الحاكمية. فيقول شاخت في ذلك ما نصه:"فهناك جمل أخذت من العهد القديم والعهد الجديد وأقوال الربانيين، أو مأخوذة من الأناجيل الموضوعة وتعاليم من الفلسفة اليونانية، وأقوال من حكم الفرس والهنود، كل ذلك أخذ مكانه في الإسلام عن طريق الحديث...ولم يكن قصد محمد **صلى الله عليه وسلم** خلق نظام يضبط به حياة أتباعه، أو وضع أصول هذا النظام على الأقل، بل ظل القانون العرفي العربي القديم–الذي تضمن كثيرا من العناصر الداخلية من رومية إقليمية وبابلية يمنية– يسير في الإسلام سيره الطبيعي، ودخلت عليه بعض التغيرات لتلائم بينه وبين الظروف الإقليمية للبدو وأهل مكة وهي مدينة تجارية، وأهل المدينة وهي مركز زراعي، وكان هم محمد في التشريع قاصرا على تصحيح بعض المسائل مدفوعا إلى ذلك باعتبارات دينية، وفي مثل هذه المسائل كانت الحوادث الخارجية هي الدافع إلى معالجة أكثرها"([13]).فمفهوم السنة عند شاخت أنها عبارة عن المحافظة على تقاليد وأعراف الجاهلية، فليست عنده مصدرا تشريعيا، وإنما هي ما كان عرفا مألوفا وانحصر ذلك المفهوم في الفترة المتأخرة من الإسلام، في أفعال الرسول **صلى الله عليه وسلم** ويستدل كغيره من المستشرقين ببعض العادات الوثنية والطقوس الجاهلية، كحملهم فعل المسلمين لشعيرة تقبيل الحجر الأسود في الحج، من باب تأثرهم بتقديس الأصنام وعبادتها، ونحو ذلك....ويرى شاخت أن ما يسمى بالفقه الإسلامي ليس هو الفقه المبني على كتاب الله وسنة النبي **صلى الله عليه وسلم** ؛ لأنه ينفي كل ما صدر عنه بصفته نبيا مبلغا أو حاكما مشرعا، وأن جل الفقه الإسلامي مأخوذ من شرائع اليهود والنصارى وديانات أخرى، عدا اجتهادات علماء المسلمين الذين هم من اختلقوا تلك الأحاديث لينتصروا ويدافعوا بها عن مذاهبهم.

فشاخت كغيره من المستشرقين يعتقد أن ما صدر عن النبي **صلى الله عليه وسلم** من أقوال وأفعال وتقريرات وغيرها من تشريع وغيره، سواء في مقام النبوة أو في مقام الحاكم، إنما هو من باب العادات والتقاليد الموروثة من الجاهلية، مستشهدا على ذلك ببعض العادات التي أقرها وأبقاها الإسلام من الجاهلية كبعض مناسك الحج(الطواف مثلا)، وبعض المعاملات كتحريم الزواج من الفروع والأصول، ووجود النكاح بولي وصداق وشهود...(لكن مع وجود أشكال أخرى حرمها الإسلام من العبادات والمعاملات)، ولذلك أصبحت السنة في مفهومه عبارة عن المحافظة على تلك العادات والأعراف القديمة، مع مزجها ببعض الأحكام الشرعية الخفيفة، التي جاءت تصحيحا وتغييرا خفيفا، اقتضته الظروف الخارجية، وهو بذلك يريد الوصول إلى أن ما صدر عن النبي – **صلى الله عليه وسلم** – من أقواله وأفعاله وتقريراته، لم تصدر عنه بصفته نبيا أو حاكما(وقاضيا)، بل إنها ليست متميزة فيذلك العهد عن الأعراف الجاهلية؛ لأنه كان متأثرا

[13] محمد مصطفى الأعظمي، المستشرق شاخت والسنة النبوية، 70/1. والصديق بشير نصر، أصول الفقه المحمدي لجوزيف شاخت، ص62.

ببيئته كغيره، وأن ما يروى من السنن منسوبا إلى النبي من أقواله وأفعاله وتقريراته، إنما هو من وضع الوضاعين واختراعات الفقهاء. كما أن شاخت استند في دعواه الباطلة حول استقاء النبي **صلى الله عليه وسلم** المعلومات لما صدر عنه بحسب مقاماته النبوية والحاكمية، من مصادر خارجية كاليهودية والنصرانية وغيرها، وذلك لوجود التشابه بينهما، معتمدا في ذلك على بعض الروايات التاريخية التي تذكر وجود بعض النصارى كانوا يعملون في مكة، وكذا لوجود اليهود في المدينة حيث هاجر إليهم([14]) .

لقد تعرض الحديث النبوي الشريف لحملة طعونات وتشكيكات من المستشرق شاخت، الذي يرى أن معظم الأحاديث المنقولة عن النبي **صلى الله عليه وسلم** هي في الحقيقة ليست أقوالا له، ولكن بعض تلك الأحاديث تنقل لنا أفكاره وتقريراته. وأن الأحاديث المنسوبة للنبي وأصحابه التي يدعى بأنها ترجع إلى عصر النبي وأصحابه، في الحقيقة لا تحتوي على معلومات موثوق بها (صحيحة) عن تلك الفترة الإسلامية الأولى، وأن تلك الأحاديث تعكس لنا الآراء التي كانت خلال القرنين الأولين من الهجرة والنصف الأول من القرن الثالث.

وقد خصص شاخت فصلا في كتابه أصول الفقه المحمدية للحديث عن نظريته في الإسناد حيث درس نشوءه وتطور استخدامه خاصة في أحاديث الأحكام، وخرج بنتيجة ونظرية يزعم فيها أن ما طبقه من منهج على أحاديث الأحكام يمكن أن ينطبق على كل الأحاديث. حيث اعترف في كتابه بأنه تبنى أراء أستاذه جولد تسيهر حول مفهوم السنة والحديث وما أسند للنبي **صلى الله عليه وسلم** أنه جاء من التفاعل الاجتماعي والأعراف السائدة وليس بحكم النبوة... وزاد عليه بزعمه أنه كانت عادة الجيلين من العلماء الذين سبقوا الشافعي أن ينسبوا الأحاديث إلى الصحابة والتابعين، ونادرا إلى الرسول **صلى الله عليه وسلم** ، ووصل إلى نتيجة مفادها أن الأحاديث المنسوبة للصحابة والتابعين سبقت في وجودها الأحاديث المنسوبة للنبي **صلى الله عليه وسلم** وهو بذلك يود أن يشكك في صدور هذه الأحاديث وخاصة الفقهية التشريعية منها أي أحاديث الأحكام عن النبي وأن التشريع، وهو المسمى عنده القانون، لم يصدر عنه **صلى الله عليه وسلم** وإنما جاء نتيجة العادات السائدة، أي خارجة عن نطاق الدين وكانت تمثل عملية لامبالاة بالنسبة للمسلمين، وأن النبي لم يكن مباليا بتشريع الأحكام للناس، وإنما هي مجرد تصحيحات رآها لما يحدث في مجتمعه طريق ما نقله من قوانين وأحكام السابقين، وبالتالي يريد أن ينزع عن النبي **صلى الله عليه وسلم** مقام السلطة التشريعية التي منحه الله إياها، ومن ثم خلع مقام النبوة عنه، والقصد من ذلك قلع جذور الشريعة الإسلامية من أساسها، والقضاء على تاريخ التشريع الإسلامي، ولهذا وصف علماء المسلمين خلال القرون الأولى بأنهم مجموعة من الكذابين الملفقين وغير أمناء، حيث يزعم أن

[14] محمد الخليفة، آراء جوزيف شاخت حول حجية السنة النبوية من خلال كتابه: أصول الشريعة المحمدية"، أطروحة ماجستير في الاستشراق، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1997، ص56.

الأحاديث المنسوبة للنبي إنما نسبت إليه تدريجيا، فهي قبل أن تنسب له، كانت عبارة عن آراء للمذاهب الفقهية السائدة ومنسوبة للتابعين، وفي المرحلة الثانية نسبت للصحابة، ثم نسبت للنبي، وأنه يمكن القول إنه كلما كان الإسناد متصلا وتاما، فإنه يعني أنه اخترع في مرحلة متأخرة، وهو بذلك يصل إلى نتيجة مفادها: أن كل ما صدر عن النبي **صلى الله عليه وسلم** من أقوال وأفعال وتقريرات وخاصة الأحاديث، لم يكن لها وجود أصلا، بل اخترعت ووضعت خلال منتصف القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، وأن كل الأحاديث مع أسانيدها إنما هي موضوعة مكذوبة.

لقد مكث شاخت أكثر من عشرة أعوام في البحث والتنقيب في معادن الأحاديث الفقهية وتوصل في كتابه أصول الشريعة إلى نتيجة مفادها أنْ ليس هناك حديث واحد صحيحا، وبخاصة أحاديث الأحكام (الفقهية) وأنها من وضع كلام علماء المسلمين من القرنين 2 و3 هـ وأقاويلهم، وضعت على لسان النبي زورا وبهتانا، وقد أصبح كتابه المذكور مرجعا أصيلا لعالم الاستشراق. فقد حاول نزع ما في السنة من فيوضات روحانية، لعزلها عن حياة الناس ومن ثم البعد عن قبولها والعمل بها، وذلك بزعمه أن السنة لا تستقل بالتشريع، وأنها ليست حجة في الدين. ومن ثم نفي مقام النبوة ومقام الحكم والتشريع عن النبي **صلى الله عليه وسلم**.

المبحث الثالث: الردود الأكاديمية على منهج شاخت في دراسته للسيرة والسنة النبوية المطهرة.

إن الناظر لمزاعم شاخت السالفة يدرك تهافته وشدة خطإه في موقفه مما صدر عن النبي **صلى الله عليه وسلم** بحسب مقاماته كلها؛ لأن تعاريف الفنون والعلوم والمصطلحات إنما يؤخذ من أهل الاختصاص، إذ لكل فن وعلم أهله، وأهل الاختصاص بتعريف مصادر التشريع الإسلامي ومنها السنة هم المسلمون من الفقهاء والمحدّثين والأصوليين، وليس المستشرقون الغرباء عن الإسلام الجاهلون له، كما أنه لا يوجد من هؤلاء المتخصصين من عرف السنة بأنها التمسك بالعادات والأعراف الجاهلية وتقاليد السابقين، ومن ثم فلا يعتد بكلام شاخت في هذا الجانب.

حاول شاخت طمس الحقائق حول ما صدر عن النبي **صلى الله عليه وسلم** ابتداء من تسمية كتابه"أصول الشريعة المحمدية"، إيحاء منه بأن ما جاء عن النبي هو من عنده وليس تشريعا من الله تعالى، متأثرا بعادات وأعراف الجاهلية وكذا اليهودية والنصرانية وغيرها من النحل، وأن جل ما فعله هو تغيير طفيف لبعض القضايا عالجها على ضوء ما نقله من تلك الأنظمة القديمة. فلقد أخطأ شاخت خطأ منهجيا جسيما تمثل فيما يلي:

1- أنه لم يفكر تفكيرا عقليا منطقيا؛ لأنه لو فعل لتوصل إلى نتيجة عكسية لما ذهب إليه. فالعقل والمنطق يفرض أن التغيير في مجتمع ما في قيمه الخلقية ومثله العليا، والتبديل في نظرته الاجتماعية، يقتضي التغيير في تلك القوانين والأنظمة والأعراف، ومن ثم فذلك ينطبق على الإسلام الذي جاء بنظامه التشريعي ليغير كل

صلات الأمة بما كان في الجاهلية من عقائد، وأنشأ لها أعرافا وتقاليد مختلفة لم تكن موجودة، وألغى الكثير مما لا يصلح منها، وأحل محلها ما هو أحسن منها، وما أبقاه منها أعطاه بعدا آخر وربطه بالعقيدة([15]).

ولو فكر شاخت بهذا المنطق لتوصل إلى الاقتناع أن ما صدر عن النبي **صلى الله عليه وسلم** كان مميزا عن أفعال البشر العادية وبعيدا عن عادات السابقين لمجتمعه، وإلى ضرورة إبقاء جانب التشريع للنبي **صلى الله عليه وسلم** باعتبار المقامين، مقام النبوة ومقام الحكم، لأجل المجتمع الإسلامي الناشئ الجديد(2).

إن ادعاء شاخت عدم تميز ما صدر عن النبي – **صلى الله عليه وسلم** – سواء في مقام النبوة أو في مقام الحكم، عن تصرفات غيره من الناس كالصحابة والتابعين ومن بعدهم، فهو ادعاء باطل وتهافت مغرض، ذلك أن شاخت تظهر عليه خصيصة من خصائص المستشرقين، وهي أنه إذا وجد حقيقة مناقضة لرأيه أخذ يُعمل فكره ويتكلف الآراء ويحاول بكل جهده أن يحور تلك الحقيقة أو ينقضها، متعللا بدقة البحث وتمحيص الأخبار ووزن الآراء فيما يزعم، وإذا وجد شبهة أو خبرا ضعيفا موافقا لأهوائه سارع على تأكيده بكل قوة، وإلى الجزم به دون دليل، ونسي شاخت وأمثاله من المستشرقين ومن وافقهم، ما يدعو لنفسه من دقة البحث وتمحيص الأخبار، فهو هنا قد تجاهل الآيات القرآنية الكثيرة التي تميز سنة رسول الله – **صلى الله عليه وسلم** – عن غيرها، وذلك من مثل قوله تعالى{ يأيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول}(النساء: 59) وقوله تعالى{ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}(آل عمران: 31) وغيرها كثير. كما إن لفظة السنة لم تعرف إلا مضافة إلى شخص النبي – **صلى الله عليه وسلم** – دون غيره من الناس، وقد وردت بذلك أحاديث كثيرة صحيحة، أي أنها كانت معروفة في حياة النبي وقبل عهد الصحابة ومن بعدهم، من ذلك حديث:" تركت فيكم من ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي"(مالك، الموطأ، 899/2) وحديث" فمن رغب عن سنتي فليس مني" (ابن ماجه، السنن، كتاب النكاح، باب ما جاء في فضل النكاح، 512/1) وحديث معاذ وغيره...

وأخيرا فإن حقيقة سنة الرسول– **صلى الله عليه وسلم** – هو كل ما صدر عنه من قول وفعل، إما بصفته نبيا أو بصفته حاكما أو قاضيا، وذلك كان واضحا في عهده – **صلى الله عليه وسلم** – ثم في عهد صحابته من بعده ومن تلاهم من القرون إلى يوم الناس هذا.

– وأما ادعاؤه أن اتباع المسلمين وحرصهم على تتبع والاقتداء بسنة نبيهم، إنما هو من باب تقليد العرب في اتباعهم لتراث وتقاليد السابقين، بينما الفرق جدّ شاسع فاتباع العرب لعادات أسلافهم كان من باب العصبية والتقليد الأعمى، بينما اتباع المسلمين لرسولهم هو من باب طاعة الله عز وجل الذي أوجبه الله عليهم. وكذلك فإن شاخت يتجاهل أن النبي – **صلى الله عليه وسلم** – كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة، ومن ثم فلم يأخذ شيئا من كتب اليهودية والنصرانية، وهو يحاول البحث عن مجرد الشبه بغض

[15] محمد الخليفة، المرجع السابق، ص57-58.

النظر عن سلامتها أو خطإها، كما أنه يتجاهل حياة النبي – **صلى الله عليه وسلم** – وعلاقاته، ويتجاهل أرباب الأديان والنحل، وهل كانوا في حالة علمية تسمح لهم بنشر أفكارهم أم لا. كما أنه متحامل على الإسلام وحده، حيث ادعى أن الإسلام أخذ عن اليهودية والنصرانية، بينما لم يقل عن النصرانية أنها أخذت عن اليهودية السابقة لها، ومعتمدة في تشريعاتها عليها،

مع أن النصوص صرحت على لسان عيسى بذلك، وأنه جاء ليؤكد التوراة وما فيها، وعيسى كان يقرأ، ومع ذلك لم يقولوا إن عيسى صاغ ذلك من نفسه متأثرا باليهودية.

– أنه لم يرجع إلى مصدر الإسلام الأول وهو القرآن الكريم عند بناء نظريته بل ضرب به عرض الحائط، وبنى نظريته على نقيض ما جاء به القرآن الكريم. وهو خطأ لا يغتفر له لتعمده ذلك التجاهل، إذ كان عليه أن يرجع لكتاب المسلمين الذي أعطاه النبي **صلى الله عليه وسلم** من الله لأمته وأمرها بالتمسك به وسنته، وعلى الباحث غير المسلم إذا أراد البحث عن الإسلام والمسلمين ونبيهم، فعليه أولا أن يبدأ البحث من كتابهم، وأن يفرق وهو يبحث بين أمرين، بين ما يعتقده هو وبين ما يعتقده المسلمون، فيبحث في ضوء معتقداتهم لا في ضوء معتقداته هو. فهو لم يبحث من وجهة نظر المسلمين بل يريد فرض وجهة نظره هو كأنها وجهة نظر المسلمين، ثم يستنبط أحكاما مسبقة غريبة([16]).مع أن الآيات الكثيرة من القرآن الكريم بينت أن الشريعة التي جاء بها محمد **صلى الله عليه وسلم** ليست خارجة عن الدين، وأنها أتت لتدل على أن الله تعالى أمر نبيه بالتبليغ،كما أعطاهسلطة التشريع. من ذلك قوله تعالى: **{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ}**(الجاثية:18)، وقوله تعالى: **{إِنَّا أَنزلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا}**(النساء:105).

ومما تعززه الحقائق التاريخية، أن الرسول **صلى الله عليه وسلم** كان يأمر الأمراء بأن يقوموا بالقضاء بين الناس حسبما شرعه الله تعالى. ومن الناحية العملية نجد أن الرسول **صلى الله عليه وسلم** كان قاضيا يقضي بين الناس، قال تعالى: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا}**(الأحزاب:36).

ومن هنا فقد بنى شاخت نظريته الأم الأساسية، وهي وقوع الشريعة في الإسلام خارج نطاق الدين، من محض خياله الخصب مع تجاهله التام للقرآن الكريم، ومن ثم التشكيك فيما صدر عن النبي **صلى الله عليه وسلم** في مقام النبوة وكذا مقام التشريع، وهو بذلك يرتكب خطأ جسيما، لم يوافقه عليه حتى بعض المستشرقين. ونجد أن شاخت حسب زعمه في كتاباته وبحوثه، التي أعلن فيها رأيه بأن الإسناد جزء اعتباطي

[16] محمد الخليفة، المرجع السابق، ص83.

في الأحاديث، وأنها نمت وتطورت على يد الأحزاب المختلفة، التي كانت تريد أن تنسب نظرياتها إلى أشخاص مرموقين، أنه كان مدعيا مفتريا.

هذا ومما يلاحظ في هذا المجال أنه كان لسوء اختيار المستشرق شاخت مصادر ونصوص دراسة الأسانيد، أكبر الأثر في وقوعه في أخطاء جسيمة: نتجت عن سوء ذلك الاختيار في المواد المدروسة، خاصة وأن هناك اختلافا في طبيعة كل من طبيعة الحديث والسيرة، إذ في كتابة الحديث يمكن كتابة حديثين في محل واحد لا صلة بينهما من ناحية الموضوع، ولا يشعر الباحث بارتباك، لكن الأمر يختلف في السيرة حيث يتطلب استمرار الحوادث والقصص، لذلك يضطر واضعوها إلى جمع الروايات المتعددة، ومزج بعضها لإخراج حادثة متكاملة؛ لأن هناك فرقا جوهريا بين طبيعة السيرة والحديث، خاصة وأن كتب السيرة ليست مجالا طبيعيا لدراسة موضوع الإسناد.

والملاحظ أن شاخت كغيره من المستشرقين تعمد دراسة الأسانيد في كتب السيرة مما جعله يصل إلى نتائج خاطئة، لاختياره مواد غير مناسبة للبحث والتنقيب عما يريد، ناهيك وأنه اعتمد في دراسة الأسانيد على ثلاثة كتب هي أقرب إلى الفقه منها إلى كتب الحديث، وهي الموطأ للإمام مالك، والموطأ للإمام محمد الشيباني، وكتاب الأم للإمام الشافعي. والمعروف منهجيا، أن أي دراسة يصل إليها الباحث للأحاديث أو أي موضوع للبحث، من غير مصادرها الأصلية ذات الاختصاص المباشر، محكوم عليها بمجانبة الحقيقة والصواب. ذلك أن الحديث النبوي موضوع قائم بذاته، مما يجعل من الخطأ الكبير دراسة الإسناد من الكتب الفقهية وكتب السيرة النبوية حتى لا تكون نتائج البحث عكسية، خاطئة، ومخالفة للواقع كما حدث للمستشرقين في هذا الباب.

ومن هذا المنطلق الخاطئ، وعن هذه النتيجة العكسية صدر "شاخت" في دراسته للأسانيد سواء في بدايتها أو قيمتها العلمية، بأن الأحاديث بدأت بشكل بدائي، ووصلت إلى كمالها في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وأن المدلول الدقيق للإسناد هو أن الجزء السفلي منه صحيح، بينما الجزء العلوي الموصل إلى النبي **صلى الله عليه وسلم** خيالي وزائف، خلافا لكل ما تعارف عليه الباحثون من المسلمين، مما يدل على عدم اطلاع "شاخت" وقلة خبرته في هذا المجال –وربما غرضه المبيت الظاهر– أنه عمد إلى بعض الأحاديث التي حكم عليها المحدثون بالخطإ والوهم، وجعلها موضوع بحثه ودراسته ليخلص إلى ما يريد الخلاص إليه، والوصول إلى نظريته، واعتمادا على تلك الأحاديث المعلولة ليطعن من خلالها في السنة، وليطبق نتائج بحثه الخاطئ على الأحاديث الصحيحة، مما أبان الزيف والتحامل في رأيه ودراسته([17]).

بعد أن نقد شاخت أسانيد الأحاديث النبوية، وطعن في أصحابها، وشكك في مبدأ ظهورها، وتاريخ تطورها، مما أسماه "بالنقد الخارجي" وتصدى للطعن في متون الحديث النبوي بمختلف الأقاويل والأكاذيب

[17] محمد الأعظمي، دراسات في الحديث النبوي، 424/2.

وشتى الوسائل، وهو ما أسماه ''النقد الداخلي'' واصفا منهج المحدثين في الجرح والتعديل بالضعف، واضعا لنفسه منهجا جديدا في النقد، لا يتفق مع الحقائق الثابتة، ولا مع ما أجمع المسلمون عليه، تحقيقا لأغراضه المبيتة، وشكوكه المفتعلة للطعن في السنة النبوية، ومحاولة القضاء عليها، وذلك بحذفه لجزء من الإسناد والاكتفاء بأقل قدر ممكن من المتن الذي يدل على المقصود ويحقق أغراضه.

– أنه يبني آراءه وأحكامه على مسلمات وأفكار مسبقة، فمن الملاحظ من كتابات شاخت حول السنة، أنه كان واقعا تحت تأثير التحيز العنصري ضد العرب والمسلمين، ويظهر ذلك بجلاء في اتهامه القاطع لصفوة الأمة وأوثق علمائها بالكذب والافتراء وعدم الأمانة، أتى بفكرته عن عدم قيمة الأسانيد وأنها كذب محض، لأن الأحاديثكلها غير موجودة أصلا، وإنما هي اختلاق من العلماء([18]). ولكن يكفينا ردا على شاخت أن نقول لو كان هؤلاء العلماء كما وصفهم، فلماذا اهتموا هم أنفسهم بدراسة الأحاديث وأفنوا أعمارهم في نقد الرواة وتوثيق الأخبار والروايات؟ ومن ثم فوقوع شاخت في براثين التعصب والتحيز أوقعه في مصادمة لأهم أصل من أصول المنهج العلمي وهو الموضوعية.

– أنه تجاهل الأدلة المضادة لآرائه، وهو ما أدى لعدم الموضوعية ومنعه من الوصول إلى الحقيقة، ومن ذلك أنه ادعى أن النبي **صلى الله عليه وسلم** لم يكن مباليا بأمور التشريع، ولذلك توصل إلى أن النبي **صلى الله عليه وسلم** لم تكن سلطته في المدينة سلطة تشريعية([19]). وهو بذلك أهمل كما رأينا الأدلة المنافية لما ذهب إليه، وهي النصوص الشرعية التي تؤكد على إسناد الله تعالى سلطة التشريع للنبي **صلى الله عليه وسلم** وعلى وجوب اتباع ما يصدر منه، سواء في مقام النبوة أو في مقام الحكم والقضاء.

– أنه فسر النصوص تفسيرا تعسفيا، دون فهمه للغة العربية وما يقتضيه السياق، وهي قاعدة مهمة في المنهج العلمي، حيث كان في كتاباته عن السنة، يفسر كل كلمة أو جملة، مفردة خارج سياقها أو معناها العام، ولذلك وقع في أخطاء جسيمة، من ذلك مثلا أنه فسر لفظ"الفتنة" التي وردت في كلام ابن سيرين الذي يقول فيه:" لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم"(مسلم، الجامع الصحيح، المقدمة،15/1) فيفسرها شاخت بأنها الفتنة التي بدأت بمقتل الوليد بن يزيد(ت126هـ) أي قريبا من نهاية الدولة الأموية، ومن ثم يحكم على عدم صحة نسبة رواية ذلك الكلام لابن سيرين، بناء على أن تاريخ وفاته كان قبل ذلك أي في 110هـ، ومن ثم فالأثر –حسب زعمه– موضوع. ولكن شاخت تجاهل عبارات النص

[18] خالد الدريس، المرجع السابق،ص19-20.

[19] الأعظمي، المستشرق شاخت والسنة النبوية،1/ 73.والصديق بشير نصر، أصول الفقه المحمدي لجوزيف شاخت، ص70.وخالد الدريس، المرجع السابق،ص 41.

وسياقه، إذ مصطلح الفتنة التي أطلقها ابن سيرين إنما أراد به ما جرى بين الصحابة من قتال بسبب مقتل عثمان –رضي الله عنه–([20]). وهذا يؤكد تعسف شاخت في فهم النصوص وتفسيرها.

الخاتمة:

ظهر لنا مما سبقأن شاخت قد طعن في الأحاديث خاصة الفقهية منها، وخلص بهذا الطعن في نهاية المطاف إلى أنه ليس هناك حديث واحد صحيح في أبواب الفقه، وأن ما صدر عن النبي **صلى الله عليه وسلم** لم يكن بغرض التشريع، ومن ثم لا توجد أقوال وأفعال صادرة عنه توجب الاتباع، لا باعتبار مقام النبوة ولا مقام الحكم، وقد لاقت آراؤه ونظرياته إعجابا ورواجا كبيرا لدى كثير من المستشرقين، وكان لها تأثير خطير أيضا على من تثقفوا بثقافته من المسلمين، رغم العيوب المنهجية الخطيرة التي وقع فيها شاخت والتي أعاقته من الوصول إلى الصواب.

[20] الأعظمي، دراسات في الحديث النبوي، 2/394-395. وخالد الدريس، المرجع السابق، ص51.